الشخصية الغربية في رواية «المخطوطة الشرقية» لواسيني الأعرج خطاب المركز و الهامش

د/ جمـــال مباركـــي
جامعـــة بسكـــرة

ملخـــص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على العلاقة بين الشرق والغرب، علاقة ترى الغرب بمثابة المركز المشع للحضارة، وبقية الشعوب هوامشَ مهمشة، ذلك ما يكشفه خطاب الأمريكي (أوسكار) الذي يملك صفة الكمال وكلية المعرفة والقوة في هذه الروايـــة.

والأمر لا يتعلق هنا بخطاب فردي، وإنما يكشف عن منظور حضارة غربية كاملة.

تمهيـــــد:

شغلت دراسة الشخصية حيزا هاما في الأبحاث الفلسفية والنفسية والنقدية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (ق 19م) بعدما تغلغلت الأبحاث النفسية في أعماق الفنان الروائي وشخصياته، وبعد أن أعلنت فرجينيا وولف (Virginia Woolf)(*) بضرورة اهتمام الدراسات

بعنصر الشخصية الذي نجهل عنه الكثير، حيث افتتحت سنة 1925م مقالها عن الشخصية الروائية بقولها:"دعونا نتذكر قلة ما نعرفه عن الشخصية"(1)، لتلح على أهمية الشخصية في دراسة الجنس الروائي وتوليه الاهتمام الأول بعد ما كان الحدث يشغل صدارة الدراسات في الشعرية الأرسطية. كما يعود هذا الاهتمام بدراسة الشخصية إلى أسباب فنية رمزية واجتماعية واقعية تنقلب فيه الشخصيات إلى أشخاص من لحم ودم، فهذا تودوروف يقول:"بقيت الشخصية بشكل متناقض الصنف الأكثر غموضا في الشعرية، قال أرنولد بنث:" بأن قاعدة النثر الجيد هي رسم الخصوصيات، وليس شيئا آخر ومشكل الشخصية هو قبل كل شيء لساني، لأنه لا يوجد خارج الكلمات، ولأنه أيضا «كائن ورقي» وسيكون من العبث رفض كل علاقة بين الشخصية والشخص: تمثل الشخصيات أشخاصا، تبعا لظروف خاصة بالتخييل".(2)

أولا: استراتيجية توظيف الروائي للشخصية:

الشخصية الروائية هي بؤرة العمل الروائي ولبّه، لذلك رأى بعض الباحثين أن أفضل تعريف للرواية هو أنها «فن الشخصية»؛ أي الفن الذي يقدم تجربة إنسانية من خلال تصويره لمجموعة من الشخصيات في واقع محدد زمانيا ومكانيا(3)، وقد أعاد الروائيون في القرن التاسع عشر لعنصر الشخصية أهميته، فتقدم على الحدث وصارت الأحداث نفسها وسائل لمعرفة الشخصيات الروائية واكتشاف أعماقها، وأصبحنا أمام شخصيات غنية تدفع القارئ إلى التعرف عليها وسبر أغوارها عن طريق

متابعتها متابعة تحليلية تحصي أفعالها وتراقب سلوكها وتوجهاتها الفكرية.(4)

وإذ تستوعب الشخصية الروح والجسم معا، فمعنى ذلك أنها مقولة من مقولات القيمة، ورمز على التكامل الإنساني والقيم الدائمة. وهي "مركب إنساني اجتماعي يحكمه اتساق ليس متجانسا بالضرورة؛ عضوي وبيئي وثقافي شامل، فتنطوي تحت «العضوي» الملامح الشكلية والنفسية، والبنية الجسدية والجنس. وتنضوي تحت «البيئي» مجمل العناصر الجغرافية والتاريخية والانتماء القومي والعرقي، ويشمل «الثقافي» كامل كتلة القيم والمعارف والعادات والتقاليد والأعراف تتضافر لتطبع الشخصية بمقادير متفاوتة من كل منـــها".(5)

ولا يخفى أن الروائي فنان خلاّق، يأتي بشخصيته الروائية من مراقبة محيطه ومجتمعه والعالم الذي تمتد له رؤاه، ولكنه يمنح هذه الشخصية كيانها المستقل، وإن ابتكرها من خياله الواسع، فإنها توهم بأنها تطابق الحياة، وهي تختلف ولكن لها أصلٌ في الواقع، غير أن هذا الأصل بمجرد أن يدخل في الرواية، يأخذ أبعادا سيميولوجية تبعا لتصور المؤلف؛ بحيث نفاجأ أحيانا بأن هؤلاء الأشخاص الذين خلقهم الروائيون قد يفلتون من أيديهم، ويحيون ظروفا أخرى ويشقّون دروبا لم تمهد لهم، وقد ينطقون بما لا يهواه خالقوهم، ورغم ذلك فلا مناص من أن ينظر النقاد إليهم على أنهم نماذج تجسد فكرة وتعبر عن موقف..وقد تكون هذه النماذج إيجابية تجترح بطولات ومآثر، وقد تكون سلبية تجسد هزائم أو

ضحايا أو لصوصا، وقد تجمع بين هذا وذاك، وفي كل الأحوال فإن الشخصيات الروائية النامية والناجحة هي التي لا يفرض عليها الروائي آراءه وتوجهاته الفكرية، ويتركها تتطور وتنمو بنمو الأحداث.

وربما هذا من بين ما كان في نية«فلوبير» عندما كتب ذات مرة قائلا: "أحد المبادئ التي أؤمن بها أن من واجب الكاتب ألاّ يكتب لنفسه، يجب على الفنان أن يكون في أثره كالله في الكون غير مرئي، وقديرا على كل شيء، حيث أننا نشعر بوجوده في كل مكان لكننا لا نــراه".(6)

وتكشف الدراسة الفنية للشخصيات الغربية عن الجوانب النفسية والجسدية والاجتماعية لهذه الشخصيات، ولا يخفى أن بعض الروائيين تفننوا في رسم هذه الشخصيات، وبلغت بهم العناية في تحليلها، فاستخدموا براعتهم الحرفية، وخبراتهم المعرفية لعرض شخصيات تمتلك قابلية الرسوخ في ثقافة الإنسان، وكان الروائيون يشعرون أن في هذه الشخصيات شيئا شيقا، وهذه العناية برسم الشخصيات جعلت النقاد يعتمدونها أساسا لتصنيف بعض الأنماط الروائية، فأصبحت تعرف في الاصطلاح الأدبي بـــ «رواية الشخصيات».(7)

أما الجانب الفكري فيكشف عن النظرة الغربية إلى الآخر، تلك النظرة الاستقطابية شرق/غرب، التي تزعم أن هناك «ذهنية شرقية» و«ذهنية غربية» و«منطق شرقي» و«منطق غربي»(8)، والغربي متفوق بحكم تكوينه، والشرقي عصي على التطور يختزن مورّثات تشدة دائما إلى الوراء، إنه مفطور على التقليد ويفتقد إلى الفكر النقدي والتفكير المنطقي السليم.كما تكشف عن أهداف الغرب الاستغلالية والاستعمارية والامتيازات

الأجنبية، وإقرار الشرقيين بتفوق **الغرب**، إنه المركز و المتن ونحن الأطراف والهوامش، فهو ملاذهم ومُعينهم في بناء أنفسهم، وحاميهم من التفكك والسقوط؛ ففي موت الغرب يكمن موت الشرق المحتم.

ثانيا: حضور الشخصيات الغربية في الروايات الجزائرية:

لن تخوض هذه الدراسة في تتبع وتحليل كلّ شخصية غربية استدعتها الروايات الجزائرية؛ لأن ذلك نراه بعيد المنال بسبب ضخامة حجم السرد الروائي، الذي استحضر الشخصية الغربية باعتباره معادلا موضوعيا لنظرة الآخر وأيديولوجيته تجاه العالم العربي، ثم إن كثيرا من ذلك النتاج الروائي قد حظي بجهود باحثين آخرين تناولوا –على تفاوت بينهم– عنصر الشخصية الغربية في بعض الروايات العربية، وإن لم يفردوا لها مبحثا أو مباحث خاصة.(**)

ومن الشخصيات الغربية التي تلفت انتباه القارئ بوصفها شخصية روائية مكتملة لها فعلها في أحداث الرواية وفي صنع النسيج الروائي، شخصية «أوسكار» في "المخطوطة الشرقية" لواسيني الأعرج.

ثالثا: شخصية أوسكار في «المخطوطة الشرقية»:

"أوسكار" شخصية غربية استدعتها رواية «المخطوطة الشرقية» لواسيني الأعرج، وهذه المخطوطة تعد امتدادا واستمرارا للّيلة نفسها من روايته السابقة «رمل الماية– فاجعة الليلة السابعة بعد الألف»[9]. كما أن

اسم المدينة الروائية «نوميديا أمدوكال» جلبه المؤلف من تلك الرواية إلى «المخطوطة الشرقية».(10)

يتناول القسم الأول من هذه الرواية اندثار مدينة «نوميديا أمدوكال» بعد أن أتت الحرب عليها في زماننا هذا، الذي يعبّر عنه المؤلف بالألفِ الثالثةِ من الزمن الميت، وهو زمن مسلوب الذاكرة يحتفل بموته، مولع بالآخر الأقوى، ممسوخ الهوية الأصيلة، لأنه "إذا مات أوسكار، ستموت معه كل احتمالات السلطان، ويحل محلها الوجع والفناء الحتمي، [أوسكار] انتظر معي خمسين سنة وأنقذني من الموت الحتمي العديد من المرّات...".(11)

وتذهب بنا الرواية إلى الأمام عبر التوقع خمسين سنة، وتعود بنا إلى الوراء إلى أزمنة الأندلس وإلى زمن عاصفة الصحراء ونظامه الجملكي(*)، إلى عهد "نوح" ولد "الملياني" "الذي يعيد النظام الجمهوري بعضد من الملياني، لكن الملياني سينقلب على نوح الشاعر ليعيد الجملكية، ويكون له يوم البيعة الكبيرة، ويشيد له مشفى الملياني الأعظم، هذا المشفى الذي يتاجر بالأعضاء البشرية، وتكون للملياني كتائب الظلام ومحرقة الكتب، وفي مرحلة تأسلمه وتبوئه الإمامة أصبح يقيم صروح المآذن الأندلسية، وستملأ صور وتماثيل الملياني المدينة ويعتدي على جيرانه في مدينة الزيت ربما (المعادل الرّوائي للكويت)، فيما الحلفاء يحرضّونها عليه ويحرضونه عليها، إلى أن هبت عاصفة الصحراء، وتتدمر المدينة وتتشقق الدولة، وينجو الأمريكان بنوح الصغير ولد

الملياني، ويهيئونه هم واليهود من أجل المستقبل القادم بعد خمسين سنـــة.[12]

ورغم الرمزية المكثفة لهذه الرواية، فليس ببعيد أن تكون المخطوطة سجلا لواقع بلاد العرب اليوم، وما يمور فيها من تناقضات، إنه واقع بلاد الشرق التي يملك "أوسكار" كل أخبارها وما يجري داخلها، كما له خبرة في. تفتت البلدان، وأوسكار/ الغرب هو الذاكرة المدهشة لنوح ولد الملياني ووسيلته داخل المنفى الوطن. تلك البلاد التي يرى "أوسكار" أنها كانت بلادًا واسعة، مدنها كبيرة، وهواؤها دافئ، لكنها فجأة أصبحت رمادا أو مسوخات تهيمن عليها مجموعة من قطاع الطرق والمرابين ورجالات الأعمال والرّعاع. هذه بلادكم يقول "أوسكار"، أورثكم الله كل شيء جميل ولكنكم أكلتم رأس كل شيء".[13]

وهاهي مدينة «نوميديا-أمدوكال» تتفكك، ويتعدد الحُكام والأمراء، "حاكم كوفرا أعلنها بلادًا مستقلة. بَريزينا صارت لملِكها الهمام الذي كان يهيمن على سوق الغنم والماعز. غطامس حوطها رئيس قبيلة، واستفرد بها بعد أن جمع حوله كومة من قطاع الطرق والمساجين القدماء، بسبب تحويل أموال الدولة. كسالة، وُضع على رأسها أمير مهووس بالدم والموت، وكل الذين دافعوا عن البلاد الواسعة ودقوا نواقيس الخطر، علّقوا على أعواد المشانق، بتهمة المس بأمن البلاد. البريدة، سبق إليها رجل صغير، قتل أخاه ووالده وأكل رأسيهما..سعِدَ برائحة النفط فصنع من مشتقاته كل شيء. أو على الأقل هكذا كان يتصور. قال سأشيد بلادا

مستقلة ومعاصرة مكتفية ذاتيا وغذائيا وصناعيا. ولكن عقله لم يتخط حوضه..وتعددت أسماء الحكام كما يقول "أوسكار" حتى صار الإنسان لا يعرف من صار حاكم ماذا؟ الشيخ المكتوم.الأمير المخزوم. الحاكم المبزول.... مولاي الظواهري السالمي، المخنفر، الكبداني، الموسوي، سيدي بومدين...". (14)

وباندثار «نوميديا- أمدوكال» ينتهي القسم الأول منها ولم يستثن من هذا التفكك إلا مدينة الزيت التي تعيش التناقض مع نفسها، إنها مدينة مزيفة دخيلة شبيهة بمدن الملح، التي تحدث عنها عبد الرحمن منيف؛ **فالغرب** هو بانيها وحاميها ومفككها إذا شاء، تلك المدينة التي "حوطت نفسها بأسلاك شائكة مكهربة، وبطائرات الأواكس التي وفّرها الحلفاء. كلهم أصبحوا يحكمون الرمال، ومدنا عادت إلى بدايتها الأولى. بنايات زجاجية عالية، نصبت تحتها خيام كثيرة، تسرح في ظلالها حيوانات تبحث عن أكلها تحت الناطحات، زيت شحم الجمال هو وسيلتهم للنور، الحمير والبغال والعربات القديمة هي ووسائلهم للتنقل والعيش والعمـــل".(15)

وكما لم تمنحنا الرواية تعيينا لمدينة «نوميديا- أمدوكال» فإن الفصول المتبقية منها(*) لا تعيّن لنا «مدينة الزيت»، سوى إيماءات يخضع تفسيرها للتخييل القرائي والتأويل السيميائي، والمعيّن فيها أن هذه المدينة الروائية واحدة من «مدن النحاس» التي غرقت، وواحدة من «مدن الملح» التي ذابت، خاصة وأن الرواية قد ذكرت عبد الرحمن منيف وروايتيه «مدن الملح» مرات عديدة، كما ذكرت مقدمة ابن خلدون وحديثه عن زوال

الدول، و«طبائع الاستبداد» لعبد الرحمن الكواكبي، و«السيف المكسور» لعبد الرحمن الجيلي، و«أمجاد الداخل» لعبد الرحمن الداخل، و«رباعيات المجدوب» لعبد الرحمن المجدوب... " مصنفات وأشعار ورجال عديدون، ولكن عبد الرحمن واحد، كلهم تحكمهم صفة الانتفاضة ضد الملك والتخييم بعيدا عن السلطان، هي كتب للذمّ والشتيمة والقذف والقدح...".(16)

وتطلعنا الرواية أن "أوسكار" الأمريكي و"سارة" اليهودية يحْضُران تفاصيل إنشاء هذه المدينة وتقهقرها واندثارها؛ فالرواية في فصلها الأخير تعود بنا إلى «نوميديا- أمدوكال» وتركز على «مدينة الزيت» التي بقيت منها ولم تندثر. هاهي قد تفككت أيضا على عهد الملياني إلى مجموعة من الدُّور: دار التبريح ودار الإمارة ودار الرماد المزركشة ودار الهدى ودار الجحيم (السجن). وإذا كانت المدينة الأولى قد عاشت على الريْع النفطي حتى نضب، فباتت البشرية تمشي على أربع، وبدأ عصر التوحش يزحف، والبلاد تدخل حافية عارية إلى عصر الانقراض الأول، فإن «مدينة الزيت» قد عاشت على الرخاء الوهمي النفطي الذي لم يطل عهده، فقام حلفاء المدينة. الدولة بالأمس بدكها دكا حينما أثاروا «عاصفة الصحراء» التي لم يمنع منها إلا قصر الملياني، فجاء العراب الأمريكي "أوسكار" والعرابة اليهودية "سارة" بعد خمسين سنة من الدثور، يضطلعان بابن الملياني ليشيّد مدينة دولة جديدة تسمى «مشيخة أمادور» الإسلامية لترث «مدينة الزيت»، و هي دولة روائية ربما على شاكلة «نوميديا-

أمدوكال» ويبقى اللاتعيين هو السمة البارزة لهذه المدينة، الدولة الروائية التي تبقى كلمات كالكلمات.(17)

و"أوسكار" في هذه الرواية عالم آثار أمريكي له خبرة بتكوّن البلدان الشرقية وما يجري بداخلها، يملك قوة التغيير في هذه البلدان، وقوة المعرفة والعلم، وقوة الآلة التي تقهر الطبيعة، وفوق ذلك فهو موضوعي لا ينطق عن الهوى مطلقا.(18) هكذا كان ينظر إليه نوح ولد الملياني الذي يعتبر "أوسكار" مرجعه الأول والأخير، فالسفينة التي سيقطع عليها البحر وينجو من الهلاك تعطلت به في لجِّ البحر، فماذا يعمل فليس هو صانعها الحقيقي، "هاهي ذي قد بدأت تتجوف، وبدأ قاعها يظهر بشكل واضح، الهيكل الأصلي والأرضية صممّها معي علماء الحفريات من أصدقائي، عندما ضحكت (وكان يبدو لي الأمر مستحيلا) وقلت لأوسكار تقوم القيامة ولا تقوم سفينة نوح. ضحك واعتبر الأمر نكتة، وتحديا في الوقت نفسه. قال لي هاه يانوح! تهيأ. عندما تقوم سواري السفينة، أعرف أن عالمك يقترب، وأنك أصبحت على مرمى حجر من ذاكرة أجدادك".(19)

ونوح ولد الملياني (الأنــا) يشعر على متن هذه السفينة الأمريكية بالدونية أمام "أوسكار" (الآخر) الأقوى، الذي تصاب الذات أمامه بالضعف على كل مستوياتها؛ "أوسكار" عندما يتحدث عن هذه العوالم يقذف بي بعيدا إلى بدائيتي الأولى، عاري الصدر والجسد، أغطِّي عورتي بورقة التوت، أو بجلد نمر مرقط، قتلته وأكلت لحمه نيئا ولبست جلده. أيعقل أن يباد كل شيء بهذه السرعة. البلاد لا تحتاج إلى حاكم ولكنها تحتاج إلى رجل يوحدها..صديقي "أوسكار" لا يحب كلمة وحدة، ولهذا لا أتحدث

أمامه في مثل هذه الموضوعات التي كثيرا ما أفكر فيها داخليا. شيء يستعصي علي أنا نفسي".[20]

وإذا كان حديث نوح ولد الملياني يقرر حقائق عن الآخر واقعية، وأخرى مبالغ فيها لعظمة هذا الآخر وهيبته التي سكنت الذات، فإنه في الوقت نفسه يُعرّي الذات ويكشفها بلسانها، فتتحدث عن ضعفها، ووهنها، وولوعها بالغرب الأقوى ممثلا في "أوسكار" عالم الآثار ورئيس فرقة الأنثروبولوجيين الغربيين الذي يذكّره بسقراط اليونان، لذلك كانت ثقته فيه كبيرة جدا، لأن "أوسكار" لا يغامر بحياته داخل شيء لا يعرف تفاصيله جيدا، ومن ثمة ستكون مهمة نوح محصورة في حدود ما يراه "أوسكار" لا أكثر، فهو بصره وبصيرته".[21]

"أوسكار" كغيره من علماء الغرب ومستشرقيه القادمين إلى الشرق ليقدموا له جلائل الأعمال وإخراجه من تخلفه وتوحشه، يقيمون دولاً ويدمرون أخرى بفعل تحريض بعضها على بعض، أو بالقوة العسكرية الغربية، أو يضعون حكاما وسلاطين تابعين له، وتظل الذات تشعر بدونيتها وتبعيتها وتعيش على الهامش، مستبعدة، مقصية من طرف **الغرب** المركز الذي لا يُقرأ الهامش من دونه، يقول "أوسكار" :"أنت تعرف يا نوح أن وجودنا هنا هو من أجلك، نريد إيصالك أنت وسفينتك إلى برّ الأمان، خلِّ هذا الحلم أثمن هدف بالنسبة لك وإلا ضاع كل شيء".[22]

وأحيانا تتفطن الذات إلى لعبة الآخر ووعوده الكاذبة في تحقيق أحلامها، خاصة وأن هذا الآخر يريد أن يحسس الذات بالعجز عن صنع

أي شيء، وأنها دائما بحاجة إليه، لتبقى تنتظر على الحافة، ولاشك أنها ستسقط في الهلاك؛ نوح الصغير يقول:"بالرغم من أن "وسكار" يعد بأحلام جديدة ولكنه لم يأت ولم يظهر منذ أن وضعوني في هذا المكان بعد رحلة الخيبة، وانسحبوا داخل صمتهم، فبقيت في البحر أمارس أعمالي الاعتيادية...هم كذلك قالوا لي منذ البداية: لقد أنقذناك لتستعيد أملاك ذويك ولكن حياتك من هنا لذلك الزمن، دبّر راسك فيها يا ولد الناس، ابحث عن حقك في العيش داخل هذا الفراغ، لا أحد يعرف الآخر. افعل أي شيء، أمامك الدنيا مادة خام، شكّلها وقلّل من أحلام الشعراء، فالشعر لا يسمعه إلا من امتلأ بطنه".[23]

وتخيلوا، نوح الصغير ولد الملياني على شاطئ مهجور لا يزال يملك طاقة نادرة للحلم منذ خمسين سنة دون أن يستهلك حلمه، وما زال ينتظر وعود "أوسكار"؛ "تعبت من هذا التاريخ. أشياء ثقيلة تملؤني. منذ أكثر من نصف قرن وأنا أعيش متنكرا في الفضاء المقلق الذي بدأ يضيق على القلب والروح. قريبا! هكذا قال "أوسكار" وهو يسرق إغفاءاتي الحزينة، قريبا سنزيح عنك غمة الصمت وحيرة الانتظار وغيمة اللاجدوى".[24]

وبعد طول انتظار أملا فيما يقرره "أوسكار" الأمريكي الأقوى والأكثر جاذبية ليُتَوّجه بالإمارة، هاهو "أوسكار" يوجه الخطاب لنوح الصغير ولد الملياني: "يا نوح إحذر إحذر! أنت الآن تعد لمهام استثنائية. يجب ألا تقتل أحاسيسك المرهفة، وإلا صرت شاعرا، وأنت تعرف مصير الشعراء، أعرف أن انتظارك طال وأن الحزن والخيبة واللاجدوى أصبحوا يُقرؤون في عينيك، لكن الذي لا يعرف دهاليز السلطان لا يعرف تقاليد الحكم...

هناك سيناريوهات كثيرة معدة لعودتك إلى عمق «أمادرور الزرقاء» أو ما تبقى من مدن «نوميديا–أمدوكال» وستحمل على الأكتاف عاليا، وهذا الأمر لا تهتم كثيرا به سنتكفل به نحـــن".[25]

ولأن "أوسكار" الأمريكي هو الأقوى في عصرنا هذا، يمتلك صفة «الكمال» وكلية المعرفة والقوة في نظر «الذات»، فإن نوح ما هو إلاّ خادم لهذه القوة، وظلّ لذلك الكمال؛ يقول:" أوسكار في الحقيقة لم يكن يناقش كان يعطي الأوامر، ويخطّ أمامي طريق الحكم محددا مسالكه الوعرة. شعرت بملوحة في كلامه الكبير، وشعرت كذلك بثقة عالية تنشأ في أعماقي، هل دنت اللحظة الحاسمة بعد أكثر من نصف قرن من الانتظار".[26]

وهكذا تتشرّب الذات خطاب الآخر عن نفسه؛ وفحواه أن **الغرب** حامل التاريخ وصانعه، **الغرب** حضور و**الشرق** غياب، **الغرب** نور **الشرق** ظلام، كما "يقدم **الغرب** ذاته أرضا للوضوح والتحليل، ويتقدم الغربي صانعا لحضارة «التفكير في العقل»، يحمل سلطة التمدين..وعلى الشرق أن يبقى خارجيّا بعيدا، يغط في أسراره الدنسة من متخيلات وخلائط متعددة".[27] لذلك يقف نوح الصغير أمام "أوسكار" مشلول الفكر مسلوب الإرادة، وإن بقي فيه شيء من العقل والعزيمة فهي للسيد وليست له،"عزيمتي لن تموت يا سيدي "أوسكار"، أنا منارتكم في هذا القفر الذي سيصير جنتكم".[28]

وبما أن "أوسكار" عالم آثار ورئيس فرقة أنثروبولوجية وقبطان سفينة، فهو يعرف **الشرق** معرفة كاملة قبل تعارفه بنوح، فهناك مدوّنة واسعة

للأنثروبولوجيا الاستشراقية كتبت عن **الشرق**، "وجردته من قيمه وتاريخه، وظهر وفقها **الشرقي:** العربي والتركي والفارسي صورة للشهواني القاسي، أو صورة البربري الفظ، خاصة الشمال إفريقي، ويجمع بين هذه الصور دينٌ بسيط وبدائي ومتعصب وعدواني هو الإسلام".(29)

وقد سلط **الغرب** هذا النوع من الأبحاث على **الشرق** منذ عصر النهضة الأوروبية، وشملت الإنسان والطبوغرافيا والجغرافيا ...ولا يخفى على نوح الصغير أن **الغرب** يعرف **الشرق** جيدا، لذلك يقول: "أوسكار هو الذي نظم تعارفنا به بالرغم من أن الرجل لم ينزع لثامه مطلقا، ولكنه كان باديا عليه أنه يعرفنا قبل هذا اللقاء".(30)

وشخصية "أوسكار" بدت في نظر نوح مليئة بالدهشة، فهو على معرفة تامة بأحوال **الشرق**، له القدرة على إنشاء دول وتفتيتها إذا أراد، يتمتع بقوة الفكر وضخامة الآلة ودقتها في الاكتشاف، كل ذلك منحه سلطة على الطبيعة، فأصبح سيدا لها، بل إنه يستشرف المستقبل ويقرأ دخائل النفوس، مما يجعله يرقى إلى مصاف الأنبياء، " أوسكار نبي يقرأ نيتي قبل حتى أن أفصح عنها، يستقبلها وهي طايرة". (31)

وهذا الاندهاش يعبر عنه في موضع آخر من الرواية بقوله:"من قال إنهم لا يعرفون؟ بارك الله فيهم. يملكون قدرة تحويلك إلى نبي كما يمكنهم أن يحوّلوك إلى مجنون مطارد في الشوارع أو مجرم مطلوب من طرف العدالة الدولية".(32)

خلاصـــة:

ونخلص إلى أن رواية «المخطوطة الشرقية» قد اتبعت تقاليد كتابية في الرواية العربية، وهي إستراتيجية اللاتعيين في كتابة المدينة الروائية التي قد تعني دولة أو فضاءً واسعا كالشرق في بعض الروايات، ونلمس ذلك في عديد من الروايات العربية، فقد سمت "حميدة نعنع" مدينتها الروائية باسم «حران» قبل حران «مدن الملح» لعبد الرحمن منيف في روايتها «الوطن في العينين»(33)، وسمّى "بهاء طاهر" مدينته الروائية بحرف «ن» في روايته «الحب في المنفى».(34) رغم أن الرواية تشير إلى فضاء في الغرب، وبالضبط إلى مدينة سويسرية، ولكن لا نعلم أي مدينة يقصد في سويسرا؟. أما مؤنس الرزّار فيسمي المدينة الروائية باسم «مدينة الضاد في روايته «سلطان النوم وزرقاء اليمامة»(35). ويتبعه في هذه الإستراتيجية أبو بكر العيّادي في روايته «آخر الرّعية»(36) بتسميته المدينة الرّوائية «عربانيا» وهي مدينة تتملّص من التحديد الجغرافي؛ ماعدا أن عربانيا هي الدولة ذات العشرين ولاية التي تحمل أسماء أصنام العرب؛ جهار، وسواع، واللات، والعزى، وهبل، وأساف، والمحرّق، ويغوث...، وربما نجد قمّة الكنائية للمدينة/الدولة الرّوائية في خماسية عبد الرحمن منيف «مدن الملح»، حيث هناك: «حرّان»، و «موران»، مدينتان روائيّتان يمكن أن تدل على مدن في الجزيرة العربية، أو على كثير من مدن الشرق، وربما حرص الرّوائي" على تعميم صورة المدن المؤقتة المرتجلة وصلاحية عدّها أنموذجا، أو حالة نمطية لجميع المدن الأخرى

المماثلة التي أنشأتها حضارة البترول وسياسات النهب الاستعماري أينما كانت".[37]

ولا شكّ أن رواية«المخطوطة الشرقية» تتحدّث عن إنشاء الغرب لدول وسلطنات وإمارات عربية، بحيث يحمي من تحافظ على مصالحه ويهدّم المارقة منها، ويتمّ ذلك من خلال تحالفه مع إمارة أو سلطنة أو دولة تدور في فلكه، مثلما رأينا بين «نوميديا- أمدوكال» ومدينة الزيت. وهي كلها دول وإمارات يختزلها "أوسكار" وينمّطها؛ فحين" انكفأ الأمير الفاطمي نوح ذو القرنين على نفسه لم يتذكّر شيئا سوى كلمات أوسكار الأخيــرة: **"الغاشي اللي هنا وهناك، لا يعرف قيمتك. فهو لا ينقاد إلاّ بالسحر والخرافة والأسطورة والدين".**[38]

كما تبرز هذه الرّواية قدرة الغرب على إزاحة أي سلطان واستبدال أي حاكم في الشرق حماية لمصالحه مادام هو الذي بوأه سدة الحكم. ويبقى هذا الملك أو ذاك الحاكم ضعيفا أمام الغرب القوي الذي يمثله في الرّواية "أوسكار" ذو الدّهشة والهيبة والعلم المبين. والرّواية في كل ذلك تُعرّي الذّات والآخر بإبرازها لعلاقة الشرق بالغرب اليوم، ولا ندري هل تستمر على حالها غدًا، بعد الذي جرى و يجري في هذا الشرق الذي "من امتلكه فقد امتلك العالم" كما تقول إحدى الشخصيات الغربية في إحدى روايات عبد الرحمن منيف؟.

الهوامــش:

[*]- وولف فرجينيا: (1882-1941): أديبة إنجليزية اشتهرت برواياتها التي تمتاز بإيقاظ الضمير الإنساني، وباعتمادها على تيار الوعي والروح النسوية منها: «ميسز دالوي»، و«الأمواج».

[1]– جيمس جويس وآخرون: نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي، ترجمة إنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العربية للترجمة والنشر، القاهرة، 1971، ص174.

[2]– تزفيتان تودوروف: مفاهيم سردية، ترجمة عبد الرحمن مزيان، ط1، منشورات الاختلاف ، الجزائر، 2005، ص71.

[3]– ينظر: أحمد إبراهيم الهواري: نقد الرواية في الأدب العربي ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ، 2003، ص98 وما بعدها.

[4]– ينظر: خليل الموسي: ملامح الرواية العربية في سورية، ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط1 2006، ص98 وما بعدها.

[5]– ينظر: صلاح صالح: سرد الآخر(الآنا والآخر عبر اللغة السردية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص100. نقلا عن: هريسكو فيتر: الأنثروبولوجيا الثقافية، ترجمة: ربّاح النفاخ، ط1، وزارة الثقافة، بيروت، 1973، ص13.

[6]– عادل فريحات: مرايا الرواية، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط1 2000، ص59.

[7]– ينظر: صلاح صالح: سرد الآخر(الآنا والآخر عبر اللغة السردية)، مرجع سبق ص102، 103.

[8]– ينظر: جان جبور: النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي، من سيطرة الهواجس هواجس السيطرة، ط1، دار النهار للنشر بيروت، 2001، ص341 وما بعدها.

[**]- من هذه الجهود الدراسية نذكر: "صورة الفرنسي في الرواية المغاربية" لعبد المجيد حنون، و"سرد الآخر" لصلاح صالح لتخصيصهما مباحث في دراسة الشخصية الغربية.

[9]– واسيني الأعرج: رمل الماية– فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، دار الاجتهاد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

[10]– ينظر: واسيني الأعرج: المخطوطة الشرقية، دار المدى، دمشق، ط1 2002، هامش ص9.

[11]– المصدر نفسه، ص181.

[***]– الجملكي: نحت للجمهورية الملكية.

[12]– ينظر: نبيل سليمان: أسرار التخييل الروائي، ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1 2005، ص44.

[13]– واسيني الأعرج: المخطوطة الشرقية، مصدر سابق ، ص44 ،45.

[14]- المصدر نفسه، ص45.
[15]- نفسه، ص45، 46.
[****]- هذه الفصول هي: تفاصيل الكتاب الضائع- على الحافة- رايات الفاطمي المنتظر.
[16]- واسيني الأعرج: المخطوطة الشرقية، مصدر سابق، ص188.
[17]- ينظر: نبيل سليمان: أسرار التخييل الروائي، مرجع سابق، ص44، 45.
[18]- ينظر: واسيني الأعرج: المخطوطة الشرقية، مصدر سابق، ص142.
[19]- المصدر نفسه، ص41.
[20]- نفسه، ص46.
[21]- ينظر: نفسه، ص178ـــ 182.
[22]- نفسه، ص182.
[23]- نفسه، ص298.
[24]- نفسه، ص310.
[25]- نفسه، ص321.
[26]- نفسه، ص413.
[27]- عمر كوش: أقلمة المفاهيم(تحولات المفهوم في ارتحاله)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ط1، 2002، ص127.
[28]- واسيني الأعرج: المخطوطة الشرقية، مصدر سابق، ص322، 323.
[29]- عمر كوش: أقلمة المفاهيم، مرجع سابق، ص145.
[30]- واسيني الأعرج: المخطوطة الشرقية، مصدر سابق، ص404.
[31]- المصدر نفسه، ص435.
[32]- نفسه، ص453.
[33]- صدرت عن دار الآداب، بيروت، 1979.
[34]- صدرت الطبعة الأولى عن دار الهلال، القاهرة، 1995.
[35]- صدرت الطبعة الأولى عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.
[36]- منشورات لارمتان، باريس، 2001.
[37]- نبيل سليمان: أسرار التخييل الرّوائي، مرجع سابق، ص32. نقلا عن: صلاح صالح: الرّواية العربية والصحراء، وزارة الثقافة، ط1 دمشق، 1996.
[38]- واسيني الأعرج: المخطوطة الشرقية، مرجع سابق، ص460، 461.